

الفصل الرابع آثار رحمة الله في الأرض

المبحث الأول: من آثار رحمة الله في الأرض

من آثار رحمة الله في الأرض، الشمس وما لها من فوائد جمّة على الأرض ومن عليها، والرياح والسحب والأمطار وما تذرّوه وما تحمله وما تنزله على الأرض، وما يجنيه الإنسان والحيوان من منافع كثيرة، وفي إحياء الأرض بعد موتها، وما تسببه من كسب للرزق، وهذه البحار التي تتخلل الخلجان والمحيطات، وما فيها من فوائد تعود على الأرض والإنسان والكائنات الحية على السواء، واختلاف الليل والنهار، فالشمس رحمة والرياح رحمة، والسحب رحمة، والأمطار رحمة، والبحار رحمة، والليل والنهار رحمة، كل ذلك من آثار رحمته سبحانه، ألقت الخالق عز وجل أنظارنا لتتعرف عليها، ونتجاوب معها ونأملها بتدبر، لنكتشف منافعها ولنسخرها كما هي مسخرة لنا، والكشف عن قوانينها وفق سنن الكون، في الاستعانة على عبادة الله وطاعته، تلك الآثار مرتبطة ببعضها في تناسق محكم، وترابط عجيب، من رب غفور رحيم.

المطلب الأول: الشمس رحمة من الله تعالى

إذا نظرنا إلى تكوين الشمس، وما اشتملت عليه من نعم تعود على الأرض، والإنسان والحيوان، نرى آثار قدرة الله تعالى ورحمته، الناشئة عنها، ونرى ما يحدثه هذا السراج من آثار في الحياة على سطح الأرض، يشهد على صنع العليم الرحيم، العالم بمحاجات سكان هذا الكوكب، وما عليه من كائنات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾⁽¹⁾، ونشر الرحمة، هو الشمس بعد الغيث، قال الأندلسي: قالت فرقة الرحمة في هذا الموضع الشمس، فذلك تعديد نعمة غير الأولى، وذلك أن المطر إذا ألم بعد القنط حسن موقعه، فإذا دام سئم فتجىء الشمس بعده عظيمة الموضع، وهو الولي الحميد ومن هذه أفعاله، فهو الذي ينفع إذا والى، وتحمد أفعاله ونعمه⁽²⁾.

1 - الشورى (28).

2 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، الأندلسي، 36/5، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1413هـ/1993م.

وتبعد الشمس عنا في المتوسط حوالي: 150 مليون كم، ويقطع الضوء هذه المسافة في حوالي ثمان دقائق وثلاث، ولو ابتعدت الشمس عنا نصف تلك المسافة لقلت الطاقة الواصلة إلى الأرض، ولتجمدت الكائنات الحية، حتى إن الدماء لتتجمد في عروقنا، ولو اقتربت نصف المسافة بيننا وبينها، لأحرقت الشمس كل شيء، ولكن الله يمسك الأرض والشمس على مسافات محكمة، تجعل الحياة ممكنة ومزدهرة في هذا النظام البديع⁽¹⁾.

إنه الرحيم الذي جعل الشمس سراجا، فأمد الأرض بالطاقة الضرورية لإنبات النبات، ومن ثم تكوين الثمار والبذور، حيث أن النبات يقوم عن طريق المادة الخضراء — الخضر — بامتصاص الطاقة الضوئية، ومن ثم تحويلها إلى طاقة كيميائية، ينتج عنها تكوين الثمار المختلفة، في عام 1942م قال ماير: إن المصدر النهائي للطاقة المستخدمة في كل من النبات والحيوان هي الشمس، وإن الطاقة المستخدمة في النباتات تتحول إلى طاقة كيميائية، عن طريق التمثيل الضوئي، ويقول جلاس عام 1961م إن المركبات الأكثر أهمية في تحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية في النبات هي الصبغات التي توجد داخل البلاستيدات الخضراء أو حاملات الصبغات⁽²⁾.

وتقوم حرارة الشمس كذلك بتبخير مياه البحار، فيصعد إلى السماء ماء عذبا سائغا، لتزل غيثا على الأرض، قال في علم الإيمان: وقد قدر الله نظاما محكما وقدر دقيقا من الحرارة يصير به ماء البحر غيثا لعباده، فلو زادت حرارة الشمس قليلا لتبخرت مياه البحار كلها، لكنها حرارة مقدرة بقدر معين، ولو كانت أسطح البحار أقل مساحة مما هي عليه الآن (4/3 اليابسة) لكانت الأمطار أقل مما هي عليه إذ تنقص كمية الأمطار، كلما نقصت مساحة أسطح البحار، فوجود سطح واسع من البحار بهذا المقدار يتناسب مع القدر المطلوب من الأمطار على سطح اليابسة، وكل عام ترفع الطاقة الشمسية بإذن الله، حوالي 400.000 كيلو متر مكعب من الرطوبة، يسقط ثلثاها ثانية فوق المحيطات، بينما يصل الباقي إلى اليابسة في صورة أمطار أو ثلوج، أو برد أو ندى⁽³⁾.

1 - علم الإيمان، الشيخ عبد المجيد الزنداني، 114/1، دار الكتب - صنعاء، ط2، 1422هـ / 2001م.

2 - فسيولوجيا النبات، روبرت م. ديلفين فرانسيس هـ. ويذا. الطبعة العربية، ص 407.

3 - علم الإيمان، الشيخ عبد المجيد الزنداني، 98/1.

وينشأ عن حرارة الشمس تمدد الهواء، وتقلصه في المناطق الباردة، ومن هنا يتولد الضغط المرتفع والضغط المنخفض، وهذا التمدد والتقلص في الهواء مع دوران الأرض، يسبب تحريك الرياح، هذه الرياح التي تسوق السحاب، فيتزل غيثا لعباد الله، ومن ثم جريان الأنهار، ونرى في دوران الأرض، الحكمة في منافع الشمس بنشوء الليل والنهار، وما فيهما من منافع للناس.

فانظر كيف يكون حالنا بدون الشمس؟ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾⁽¹⁾، يقول الشيخ الزنداني⁽²⁾: وإذا كانت الحركة هي التحول من مكان إلى مكان، أو من حال إلى حال، ولا تتم تلك الحركة، أو التحول إلا بقوة أو طاقة، أدركنا معنى قولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا حركة في الكون إلا بطاقة، وكل طاقة من عند الله سبحانه⁽³⁾، إذن بدون الشمس تتوقف الحياة، وتستحيل الحياة على سطح الأرض.

فالشمس رحمة من الله تعالى، وهي مصدر للطاقة، وسببا في نشوء تلك التحولات على سطح الأرض، والمنافع العائدة على الإنسان والحيوان، فالله تعالى يأمرنا أن ننظر إلى آثار رحمته، من جراء هذا النشر لتتعرف على رحمته، ونعلم أنه الرحيم.

المطلب الثاني: الرياح والمطر بشرى بين يدي رحمة الله

الرياح رحمة من الله تعالى، ولذا هانا الرسول ﷺ عن سب الرياح، إذ الرياح ربما أتت بالرحمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرَّيْحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَلَا تَسُبُّوْهَا، وَسَلُّوْا اللَّهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِذُوا مِنْ شَرِّهَا»⁽⁴⁾.

— ومن خلال دراسة العلماء للرياح وجد أن لها معنيين إذا أفردت أو جمعت:

- 1 - القصص (71).
- 2 - الزنداني: هو الشيخ الداعية العالم الرباني عبد المجيد عزيز الزنداني، من علماء اليمن، ولد في: 1359هـ/ 1939م، بمديرية بعدان، إب، إحدى محافظات اليمن، أكمل دراسته الجامعية بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، ثم عاد إلى اليمن، حيث بدأ نشاطه الدعوي، درس في مدارسها، وألف كتاب التوحيد لجميع المراحل الدراسية، شغل رئيسا لهيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، بالسعودية، حيث أسلم على يديه الكثير من العلماء الغربيين والشرقيين، وله مؤتمرات عالمية وندوات، ومحاضرات في الإعجاز العلمي، شغل منصب عضو في مجلس الرئاسة بعد الوحدة بين شطري اليمن، أسس جامعة الإيمان سنة 1414هـ/ 1994م، وهو رئيسا للجامعة، له عدة مؤلفات منها: علم الإيمان، بينات الرسول ومعجزاته، توحيد الخالق.
- 3 - علم الإيمان، الشيخ عبد المجيد الزنداني، 116/1.
- 4 - صحيح ابن حبان، للإمام محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، تحقيق: الشيخ/ شعيب الأرناؤوط، 23/1، برقم: 983، باب الاستعاذة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2، 1414هـ/ 1993م.

ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت أو في سياق العذاب أفردت، وعن أبي بن كعب قال: كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب، ولهذا ورد في الحديث: (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا)، وذكر في حكمة: ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهبات والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أثير لها من مقابلها ما يكسر سورتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكانت في الرحمة رياحا، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد، ولا معارض لها ولا دافع، وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى في سورة يونس: (وجرين بهم بريح طيبة) وذلك لوجهين لفظي وهو المقابلة في قوله: (جاءتها ريح عاصف) ورب شيء يجوز في المقابلة ولا يجوز إستقلالاً نحو: ﴿وَمَكْرُوا اللَّهَ وَاللَّهُ﴾⁽¹⁾، ومعنوي وهو أن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد، فإن اختلفت عليها الرياح كان سبب الهلاك، والمطلوب هنا ريح واحدة، ولهذا أكد هذا المعنى بوصفها بالطيب، وعلى ذلك أيضا جرى قوله: (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد) وقال ابن المنير: إنه على القاعدة لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السفن، ومن ذلك أفراد النور وجمع الظلمات، وإفراد سبيل الحق وجمع سبل الباطل، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾⁽²⁾، لأن طريق الحق واحدة، وطريق الباطل متشعبة متعددة، والظلمات بمرتلة طرق الباطل، والنور بمرتلة طريق الحق، ولهذا وحّد ولي المؤمنين وجمع أولياء الكفار لتعددتهم، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾⁽³⁾، ومن ذلك أفراد النار حيث وقعت والجنة وقعت مجموعة ومفردة، لأن الجنان مختلفة الأنواع فحسن جمعها، والنار مادة واحدة، ولأن الجنة رحمة والنار عذاب فناسب جمع الأولى وإفراد الثانية على حد الرياح والريح⁽⁴⁾.

1 - آل عمران من الآية (54).

2 - الأنعام من الآية (153).

3 - البقرة من الآية (257).

4 - الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 1 / 563.

1 — من رحمة الله إحياء الأرض بعد موتها بالمطر الذي تسوقه الرياح:

أ — ظاهرة نزول المطر الذي تسوقه الرياح:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ، فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽¹⁾.

ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح، وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه، يبعث الرياح فتحرك السحاب وتسوقه أمامها، فيشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفا أو كثيفا، مطبقا أو غير مطبق، ويجعله أحيانا قطعاً متفرقة، فترى المطر يخرج من بين السحاب، فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه، إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر، وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين، قال البيضاوي: والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم.

قال الشيخ/ عبد المجيد الزنداني حفظه الله: إن بخار الماء خفيف يتصاعد إلى أعلى ولا يرى إلا إذا تكثف، فيرسل الله الرياح محملة بذرات الدخان والأتربة وحبوب اللقاح وغيرها من نويات التكاثف، فتلتقح جزيئات بخار الماء بها، فتستثيرها، فيتجمع بخار الماء حول تلك الجزيئات مكوناً أغلفة مائية، فتتكون قطيرات مائية يمكن رؤيتها، فنشاهدها سحاباً، وبازدياد تلك القطيرات تتحول إلى قطرات ثقيلة فتترل مطراً، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾⁽²⁾، وهناك سنة إلهية ثالثة وهي سنة نقل هذا الماء من فوق البحار، إلى أعماق القارات، وذلك بواسطة الرياح التي تسوق السحب، دون أن تتقاضى من الناس ثمناً أو أجراً، لأنها مسخرة لهم بأمر الله جل وعلا⁽³⁾.

1 - الروم (48 - 50).

2 - الروم (48).

3 - علم الإيمان، الشيخ عبد المجيد الزنداني، 100/1.

وانظر إلى آثار رحمة الله في الرياح، وأنظر إلى الحكمة في تقدير الرياح، فإن طبقات الجو مقسمة إلى ثلاث مناطق، المنطقة الأولى يبلغ ارتفاعها 8 أميال عن سطح البحر، وهي المنطقة التي لا ربح فيها، ثم نزولا إلى الطبقة الثانية، والتي ترتفع 5 أميال عن سطح البحر، حيث توجد منطقة التيار النفث، تسير الرياح فيها بسرعة مائتي ميل في الساعة، لو اقتربت من سطح الأرض لاختل نظام الحياة، ولما ابقّت شيئا على الأرض إلا ودمرته، واختل النظام الذي يسير عليه المطر، ولو كانت المنطقة الأولى بدلا المنطقة الثالثة الموجودة على سطح الأرض، والتي بها الرياح العادية، لما تحرك ماء إلى داخل القارات ولظلت الأمطار فوق البحر ولما مات الناس والأنعام والزرع عطشا، فانظر إلى التدبير الحكيم، من الرحمن الرحيم في توزيع حركة الرياح على هذه الأرض⁽¹⁾.

فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار إلى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر، فانظر إلى آثار رحمة الله المترتبة على تزييل المطر من النبات والأشجار وأنواع الثمار⁽²⁾، كخضرة الأشجار، وتفتح الأزهار، وكثرة الثمار، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة؟، إن ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم، وهو مبالغ في القدرة على جميع الأشياء، لا يعجزه شيء.

إن ذلك لحيي الموتى.. وهو على كل شيء قدير..

يقول سيد قطب: وهذه آثار رحمة الله في الأرض تنطق بصدق هذا الوعد، وتؤكد هذا المصير⁽³⁾.

ب — ثم مشهد الرياح والأمطار، مشهد الرحمة إنها ظاهرة الرياح المبشرة بالمطر وما يبعثه من حياء ونماء على وجه الأرض:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثَقَالًا سُفِّنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

1 - انظر نفس المرجع السابق، 102 / 1.

2 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 64 / 7، (والفاء للدلالة على سرعة ترتيبها عليه).

3 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 2775/4.

4 - الأعراف (57).

إن الله تعالى يرسل (الرياح المبشرات بالغيث التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله، حتى إذا أقلت الرياح سحابا ثقلا قد أثاره بعضها وألفته ريح أخرى وألقحته ريح أخرى، سقناه لبلد ميت، قد كادت تهلك حيواناته وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله، فأنزلنا به أي ذلك البلد الميت، الماء الغزير من ذلك السحاب، وسخر الله له ريحا تدره، وريحا تفرقه بإذن الله، فأخرجنا به من كل الثمرات، فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله، فكما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاة متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين فمنكر البعث استبعادا له — مع أنه يرى ما هو نظيره — من باب العناد وإنكار المحسوسات، وفي هذا الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال⁽¹⁾.

وهذه الآية تحدثنا عن نقل الرياح للسحب، وأنها هي التي تسوقها بأمر الله سبحانه وتعالى: سقناه لبلد ميت، قد ثبت أن هناك مناطق صحراوية مجدبة تحولت إلى مناطق زراعية، وكما أن الله حول تلك المناطق الميتة، إلى أرض حية فإن الله يبعث الموتى كذلك، بإنزال مطر من السماء تنبت منه أجسام الآدميين⁽²⁾، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽³⁾.

ومن رحمة الله تعالى هذا السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهذه الرياح لحمله، وسنة نزول المطر بشكل قطرات، قال الشيخ عبد المجيد: إن السحاب المسخر بين السماء والأرض تعادلت فيه قوة الجاذبية التي تجذبه إلى أسفل مع قوة الرفع التي ترفعه إلى أعلى، ولو استمر هذا التعادل بين القوتين لما نزلت قطرة ماء واحدة ولكن الله جل وعلا يرسل الرياح لحمل السحاب، إلى ارتفاعات أكثر برودة فيزداد التكثيف ويزداد حجم القطرات ويتبارك الماء في تلك القطرات، ويزداد ثقلها فتتغلب الجاذبية على قوة الرفع فيترل المطر بقدرته سبحانه وتعالى... ولكي لا يترل الماء كتلة واحدة فقد جعل الله سنة التوتر

1 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 1/ 292.

2 - انظر علم الإيمان، الشيخ عبد المجيد الزنداني، 1/ 102.

3 - الأعراف (57).

السطحي⁽¹⁾، في قطرات الماء سببا في نزوله على شكل قطرات صغيرة حتى لا يحدث الدمار على سطح الأرض⁽²⁾.

ج — والذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا، وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾⁽³⁾.

أي أرسل الرياح مبشرة بتزول الغيث والمطر، وأنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماء طاهرا مطهرا تشربون وتتطهرون به، لنحيي بهذا المطر أرضا ميتة لا زرع فيها ولا نبات، وليشرب منه الحيوان والإنسان، لأن الماء حياة كل حي، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم، وسقي مواشيهم، قال الإمام الفخر: وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم، وأكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار، فهم في غنية عن شرب مياه المطر، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر⁽⁴⁾، ولهذا قال (أنعاما وأناسي كثيرا) أي بشرا كثيرين، ولقد ضربنا الأمثال في هذا القرآن للناس، وبيننا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا، فأبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب.

والحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض، ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلى باطن الأرض منه، ولكن الذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله المثلة فيه إدراكا صحيحا كاملا، هم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه، وهم يترقبون الرياح التي يعرفونها تسوق السحب، ويستبشرون بها؛ ويحسون فيها رحمة الله إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان⁽⁵⁾.

1 - التوتر السطحي: هو تماسك جزيئات السائل السطحية بقوة، الأمر الذي يمنع اتحاد قطرات المطر مع بعضها البعض.

2 - انظر علم الإيمان، الشيخ عبد المجيد الزنداني، 1/ 105.

3 - الفرقان (48 - 50).

4 - التفسير الكبير، الرازي، 80/24.

5 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4/ 2570.

د — ومن رحمته سبحانه الرياح التي تجلب المطر الذي يأتي بالرزق للعباد:
قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽¹⁾.

أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بتزول
المطر والإنبات والرزق، وليترل عليكم من رحمته الغيث، قال ابن كثير: (وليذيقكم من
رحمته) أي المطر الذي يتزله فيحيي به العباد والبلاد⁽²⁾، ولتسير السفن في البحر عند هبوب
الرياح بإذنه وإرادته، ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر، ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم.
يقول سيد قطب حول هذه الآية:

إنه يجمع في هذه الآيات بين إرسال الرياح مبشرات، وإرسال الرسل بالبينات، ونصر
المؤمنين بالرسل، وإنزال المطر المحيي، وإحياء الموتى وبعثهم.. وهو جمع له مغزاه.. إنها
كلها من رحمة الله، وكلها تتبع سنة الله، بين نظام الكون، ورسالات الرسل بالهدى،
ونصر المؤمنين، صلة وثيقة، كلها من آيات الله، من نعمته ورحمته، وبها تتعلق حياتهم،
وهي مرتبطة كلها بنظام الكون الأصيل.

ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات.. تبشر بالمطر، هم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة
والتجربة فيستبشرون بها، وليذيقكم من رحمته بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء،
ولتجري الفلك بأمره سواء بدفع الرياح لها؛ أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجري السفن
فيها، هي تجري - مع هذا - بأمر الله، وفق سنته التي فطر عليها الكون؛ وتقديره الذي
أودع كل شيء خاصيته ووظيفته، وجعل من شأن هذا أن تخف الفلك على سطح الماء
فتسير، وأن تدفعها الرياح فتجري مع التيار وضد التيار، كل شيء عنده بمقدار، ولتبتغوا
من فضله في الرحلات التجارية، وفي الزرع والحصاد، وفي الأخذ والعطاء، كله من فضل
الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، ولعلكم تشكرون على نعمة الله في هذا كله،
وهذا توجيهه إلى ما ينبغي أن يقابل به العباد نعمة الله الوهاب.

ومثل إرسال الرياح مبشرات إرسال الرسل بالبينات:
ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات..

1 - الروم (46).
2 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 3/ 437.

ولكن الناس لم يستقبلوا رحمة الله هذه - وهي أجل وأعظم - استقبلهم للرياح المبهشات، ولا انتفعوا بها - وهي أنفع وأدوم - انتفاعهم بالمطر والماء! ووقفوا تجاه الرسل فريقين: مجرمين لا يؤمنون ولا يتدبرون ولا يكفون عن إيذاء الرسل والصد عن سبيل الله، مؤمنين يدركون آيات الله، ويشكرون رحمته، ويثقون بوعده، ويحتملون من المجرمين ما يحتملون.. ثم كانت العاقبة التي تتفق مع عدل الله ووعده الوثيق⁽¹⁾...

— وقال تعالى عن سوق الرياح التي تبشر بالمطر رحمة للبلاد والعباد:
﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽²⁾.

أي من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أي بين يدي المطر (فمن الذي يسوق الرياح مبشرة بتزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟) فيرسلها فتثير السحاب، ثم تؤلفه ثم تجمعها، ثم تلقحها ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر، أإله مع الله فعل ذلك! أم هو وحده الذي انفرد به، فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ تعالى الله عما يشركون، تعظم وتتره وتقدس عن شركهم، وتسويتهم به غيره⁽³⁾.

ويقول صاحب الظلال: والناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن- يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم ؛ ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم.. ويهتدون.. فمن يهديهم؟ من أودع كيانه تلك القوى المدركة؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم؟ من وصل فطرهم بفطرة هذا الكون، وطاقتهم بأسراره؟ من جعل لأذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للإنتفاع بكل المدركات، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات؟
من؟ أإله مع الله؟

1 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 2774/4.

2 - النمل (63).

3 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 608/1.

ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته؟..
والرياح مهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية، تابعة للتصميم الكوني الأول، الذي يسمح بجرياتها على النحو الذي تجري به، حاملة السحب من مكان إلى مكان، مبشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله، وهو سبب الحياة.
فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته، فأرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته؟ من؟
إله مع الله؟.. تعالى الله عما يشركون!⁽¹⁾..

— وقال تعالى عن نشر رحمته بالغيث بعد يأس الناس:
﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾⁽²⁾.
تعدد لنعمه على العباد، أي هو تعالى الذي يتزل المطر الذي يغيثهم من الجذب، من بعد ما يئسوا من نزوله، ويسط خيرات وبركاته على العباد، وهو الولي الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء.

وقال في الكشف: وينشر رحمته: أي بركات الغيث ومنافعه، وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له لما أشد القحط، وقنط الناس فقال: مطروا إذا!، أراد هذه الآية، ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء كأنه قال: يتزل الرحمة التي هي الغيث وينشر غيرها من رحمته الواسعة، والولي: الذي يتولى عباده بإحسانه، الحميد: المحمود على ذلك يحمد أهله طاعته⁽³⁾.

1 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2659.

2 - الشورى (28).

3 - الكشف، الزمخشري، 4 / 228.

المبحث الثاني – من رحمة الله في البحر

المطلب الأول: تجلي رحمة الله في البحار

من رحمة الله تعالى أن جعل نسبة كبيرة على سطح الأرض من المياه، ومعظمها تكون البحار، ومن رحمته بالإنسان أن جعل مياه البحار مالحة، ولو جعلها عذبة لهاجمتها جراثيم التعفن، وأفسدت بيئة الأرض، ومن رحمته أن ترى السفن مواخر فيه، لخدمة الإنسان، ومن رحمته أن جعل للمياه درجة غليان عالية، وهي 100 درجة مئوية، ليست منخفضة كباقي المواد الأخرى، قال في علم الإيمان: وبسبب هذه الخاصية ترتفع درجة حرارة البحار والمحيطات ببطء عند تعرضها لحرارة الشمس، فتظل البحار والأسطح المائية على الأرض في النهار باردة نسبياً، فتقوم بتبريد الغلاف الجوي الملاصق لها، بينما تظل درجات الحرارة على اليابسة مرتفعة، بسبب انخفاض درجة الحرارة النوعية للصخور، فيرتفع الهواء فوق اليابسة، بسبب ارتفاع درجة الحرارة فيقل الضغط، وبذا تهب الرياح من البحر، حيث يكون الضغط أعلى من الضغط فوق اليابسة، فتلطف جو اليابسة، وهذا ما نسميه نسيم البحر.

وفي الليل تفقد البحار والأسطح المائية حرارتها ببطء فتبقى دافئة نسبياً طوال الليل، وتدفع الهواء الملاصق لها، فيرتفع وينخفض الضغط، وتهب الرياح الباردة من اليابسة، حيث الضغط العالي إلى البحر، مما يؤدي إلى تدفئة اليابسة على الشاطئ، وبهذا تكون الحرارة النوعية التي قدرها الله للماء سبباً في جعل البحار مكيفاً لدرجة حرارة الأرض في الليل والنهار، ولو لم تقدر تلك الحرارة النوعية المناسبة لاختلفت حياة الكائنات على الأرض، فمن قدر تلك الحرارة النوعية للماء التي بها تصبح درجة الحرارة على الأرض مناسبة لحياة الكائنات عليها؟، إنه الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً⁽¹⁾، ومن رحمته أن قدره.

المطلب الثاني: رحمة الله تدرك الإنسان في البحر

1 — من رحمة الله تسيير الفلك في البحر وتسخيرها للعباد وإنقاذهم من الغرق:

أ — من رحمة الله تسيير الفلك وتسخيرها في البحر: قال تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾⁽¹⁾.

ربكم أيها الناس هو الذي يسير لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم، وتجارتكم، هو تعالى رحيم بالعباد، ولهذا سهل لهم أسباب ذلك، وجاء في الكشف: يزجي: يجري ويسير، قال في التفسير الكبير للفخر الرازي: والإزجاء سوق الشيء حالا بعد حال، والمعنى ربكم الذي يسير الفلك على وجه البحر، لتبتغوا من فضله في طلب التجارة، إنه كان بكم رحيمًا، والخطاب في قوله (ربكم) قام في حق الكل، المراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُّوفٌ رَحِيمٌ﴾⁽³⁾، أي ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابعة وأياديه الواسعة، أن الله سخر لكم ما في الأرض، من حيوانات ونبات وجمادات، فجميع ما في الأرض مسخر لبني آدم، حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها، وسخر لكم الفلك وهي السفن تجري في البحر بأمره، تحملكم وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها ومن رحمته بكم، أنه ويمسك السماء أن تقع على الأرض، فلولا رحمته وقدرته لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها وهلك من فيها، (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا)، (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهذا

1 - الإسراء (66).

2 - التفسير الكبير، الرازي، 9/21.

3 - الحج (65).

يريد لهم الخير، ويريدون لأنفسهم الشر والضرر، ومن رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء⁽¹⁾.

وهذا تذكير بنعم الله تعالى على خلقه، وكل ذلك من لطفه ورحمته بهم حيث هيا لهم أسباب المعاش فليشكروا آلاءه ورحمته سبحانه.

ب — ومن رحمة الله في البحر إنقاذ الناس من الغرق: قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾⁽²⁾.

قال في التسهيل: وإنما خص ذريتهم بالذكر، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة⁽³⁾، وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان، وقال ابن عباس: هي الإبل وسائر المركوبات، فهي في البر مثل السفن في البحر⁽⁴⁾، وهذا دليل لهم وبرهان على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعم، الصارف للنقم، الذي من جملة نعمه، أنا حملنا ذريتهم من الغرق، ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم من الغرق، مع قدرته على ذلك، قال وإن نشأ نغرقهم فلا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، ولا هم ينقذون مما هم فيه، إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين حيث لم نغرقهم لطفا بهم وتمتيعا لهم إلى حين، لعلهم يرجعون أو يستدركون ما فرط منهم⁽⁵⁾.. وقال سيد قطب: والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها، وإلا تتركها رحمة الله فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط، يدركون هول البحر المخيف؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار، ويحسون معنى رحمة الله؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح، ولا تمسكه يد سواها في أرض أو

1 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 1/ 544 - 545.

2 - يس (41 - 44).

3 - التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي، 3/ 164.

4 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 15/ 35.

5 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 1/ 696 - 697.

سواء، وذلك حتى يقضي الكتاب أجله، ويحل الموعد المقدور في حينه، وفق ما قدره الحكيم الخبير: ومتاعاً إلى حين⁽¹⁾..

المبحث الثالث - من مظاهر الرحمة في الأرض

المطلب الأول: من آثار الرحمة في خلق الأرض

1 — ومن رحمة الله في الأرض أن خلق للناس من كل زوج كريم، وأن الله قادر على معاقبة الكافرين قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾⁽²⁾.

أو لم ينظروا إلى عجائب الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنف حسن محمود، كثير الخير والمنفعة؟، والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار، إن في ذلك الإنبات لآية باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته، وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم، قال الفخر الرازي: والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر، ومع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم، فأما قوله: (وإن ربك هو العزيز الرحيم) فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم، لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة، كانت أعظم وقعا، والمراد أنهم مع كفرهم وقدره الله على أن يعجل عقابهم، لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات، ثم من إعطاء الصحة والعقل والهداية⁽³⁾.

— ومن علم الله في الأرض ورحمته إنزال الرزق: قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾⁽⁴⁾.

الله يعلم ما يلج في الأرض من الحبة والأموات، ويخرج منها من السنبال والأحياء، وما ينزل من السماء من أنواع رحمته، منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن، وما يعرج فيها

1 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 2970/5.

2 - الشعراء (7 - 9).

3 - التفسير الكبير، الفخر الرازي، 105/24.

4 - سبأ (2).

منها الكلم الطيب، لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾⁽¹⁾، ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة، لقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾⁽²⁾، وقدم ما يلج في الأرض على ما يتزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً، وقال وهو الرحيم الغفور رحيم بالإنزال حيث يتزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولاً بالإنزال، وغفر ثانياً عند العروج⁽³⁾.

والله يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز والأموات، وما يخرج من الأرض كماء العيون والآبار، وما يتزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة، وما يصعد إليها من الأعمال الصالحات، والدعوات الزاكيات، فرحم خلقه في الأرض بإنزال هذه النعم أولاً، ثم يغفر لهم بعد ذلك إن شاء.

المطلب الثاني: من مظاهر قدرة الله و آثار رحمته (اختلاف الليل والنهار):

جعل الله — سبحانه وتعالى — للإنسان دورة يومية منتظمة مع تعاقب الليل والنهار، فخص النهار بالسعي والعمل، وخص الليل بالراحة والسكون، وجعله مظلماً وجعل برده سبباً لضعف القوى المحركة، وظلمته سبباً لهدوء الحواس الظاهرة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽⁴⁾.

قال الإمام الفخر: ومن رحمته زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة، لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار، ولأداء الشكر على المنفعتين معاً⁽⁵⁾.

— وجه الرحمة في السكن بالليل وابتغاء الرزق في النهار، وعلاقة ذلك بجسم الإنسان وراحته:

أ — نشاط أجهزة ووظائف وأعضاء الإنسان في النهار والليل، وتأثير الضوء عليها:

1 - فاطر (10).

2 - فاطر (10).

3 - انظر التفسير الكبير، الرازي، 207/25 - 208، بالتصرف.

4 - القصص (73).

5 - التفسير الكبير، الرازي، 11/25.

في النهار كل الأجهزة والوظائف والأعضاء تعمل ضمن خطة شاملة متوازنة، هدفها خدمة مصلحة الجسم العليا (حياته وسلامته)، (التكامل والتناسق)، مثلاً: ينشط أثناء النهار الجهاز العصبي، وتزداد سرعة ضربات القلب، وارتفاع ضغط الدم، وزيادة الدورة الدموية للمخ، وزيادة التنفس، ويزداد إفراز الهرمونات، التي توفر الطاقة، مثل (الكورتيزون)، والهرمون الحاث لإفرازه عن طريق الغدة الصنوبرية، وارتفاع هرمون (السيرثونين) في الدم، و(الأندرفين)، مما يزيد في إفراز السكر لنشاط الجسم، وتحليل الدهون والبروتينات، مما يتيح الضوء للجسم الحصول على الأحماض الأمينية، كل ذلك يتم في النهار بفعل تنشيط الضوء لهذه الوظائف.

ومن رحمة الله أن فرض الله تعالى الصلوات الخمس، ليستعد الجسم لهذه التحولات، ففرض صلاة الصبح ليستعد المؤمن لاستقبال الضوء في موعده، مما يحفظ من نشاط الغدة الصنوبرية، التي تفرز الهرمون الحاث (الكورتيزون)، بفعل الضوء، والاستعداد لاستعمال الطاقة التي يوفرها بالحركة والسعي، وهو ارتفاع يحدث ذاتياً بعد الاستيقاظ من النوم، وفي منتصف النهار يستعد المؤمن لصلاة الظهر، مما يهديء نفسه بها، وتقلل من ارتفاع وحدة الهرمونات وإفرازاتها، ومن التوتر الحاصل من الجوع، هذه التحولات التي تنشأ عن النهار، الذي جعله الله مبصراً، وليتغني فيه الإنسان من فضل الله.

ولولا تجاوب هذه الوظائف مع حركة النهار والضوء، لتعطلت حركة الإنسان، بل يحدث اختلالات في وظائفه وأعضائه، وكل ذلك يتوافق مع دورة النشاط التي تفرز في الجسم، ولو استمرت على هذا التحول لأهلكته، ولذلك قال تعالى قبل هذه الآية، وقبل أن يذكر برحمته في الليل والنهار قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾⁽¹⁾.

فمن رحمته أن جعل الليل للسكن والراحة، وجعل ظلمته سبباً لهدوء الحواس، فأثناء الليل يزداد نشاط الإفرازات التي تؤدي إلى راحة واسترخاء أجهزة الجسم، مثل (الميلاتونين)، و(البورستاجلاندين)، ونشاط الخلايا اللمفاوية، ونشاط كريات الدم البيضاء، لتعزيز دفاعات الجسم، كما يقل هرمون الكورتيزون، وبالتالي تنشط وسائل

المناعة، حيث يتلاشى التأثير المثبط للمناعة لهذا الهرمون، لتتوب عن دفاعات الجسم في النهار، ولتعمل على إصلاح وتعويض ما تبدد أثناء النشاط النهاري، ويتناسق معها فرض صلاة المغرب والعشاء، والمشي إلى المساجد في هذا الوقت كنوع من الرياضة، يؤدي إلى خفض ضغط الدم، وتقليل احتمالات الأزمات القلبية، والمخية، بل والحث على تخصيص جزء من الليل الأخير للصلاة، حيث صفاء الذهن⁽¹⁾.

هذه تجاوبات الجسم مع حركة الليل، والاحتياطات اللازمة لها، ولو استمرت هذه التحولات الليلية، لهلك الإنسان كذلك، فمن رحمة الله أن جعل النهار، بعد هذه الفترة، وهو مستعد للنشاط، واستقبال النهار، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾⁽²⁾، هذه رحمة الله في تناوب الليل والنهار، فلذلك وجب أن نشكر الله، ونفرد به بالشكر والحمد، ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽³⁾.

قال الطبري: ومن رحمته بكم أيها الناس جعل لكم الليل والنهار فخالف بينهما، فجعل هذا الليل ظلاما لتسكنوا فيه، وتهدؤوا وتستقروا لراحة أبدانكم فيه، من تعب التصرف الذي تتصرفون نهارا لمعايشكم، وجعل هذا النهار ضياء تبصرون فيه، فتتصرفون بأبصاركم فيه لمعايشكم، وابتغاء رزقه الذي قسمه بينكم بفضل الذي تفضل عليكم، ولتشكروه على إنعامه عليكم بذلك، فعل ذلك بكم لتفردوه بالشكر وتخلصوا له الحمد، لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم بذلك شريك، فلذلك ينبغي أن لا يكون له شريك في الحمد عليه⁽⁴⁾.

فتلك نعم الله ورحمته، لسعي الإنسان ولتتم له الراحة بعد هذا السعي، قال الإمام الرازي: فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان لأن المرء في الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب، لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات، ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا

1- استنباطات واستعانة ببحث (هدي الإسلام وإيقاع الساعة البيولوجية) بالتصرف، د/ مصباح سيد كامل، مجلة الإعجاز العلمي، العدد: 15، ربيع الأول 1424هـ، ص 31-35.

2 - القصص (71).

3 - القصص (73).

4- جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري، 103/20 - 104.

الراحة والسكون بالليل، فلا بد منهما والحالة هذه (في الدنيا)، فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب، فلا حاجة بهم إلى الليل، فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات⁽¹⁾.

وقد تجد حالات نادرة مخالفة لهذا السلوك، فهي مخالفة للفطرة، قال الإمام الشوكاني: واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكنا، وطلب الرزق في الليل ممكنا، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند الاستضاءة بشيء بماله نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر، مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به⁽²⁾.

قال تعالى مذكرا بهذه النعمة والرحمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾⁽⁴⁾.

وبهذا يتبين لنا سبق القرآن في لفت أنظار الناس إلى آثار رحمته، في تعاقب الليل والنهار، وفي تقرير هذه الحقائق، والكشف عن القوانين التي تضبطها وتسيرها، وتماشيتها مع خلق الإنسان، والتي تحفظ الجسم وتنظم عمله، ليتوافق مع الكون وسننه ونواميسه، فلا يصطدم بها.

1 - التفسير الكبير، الرازي، 11/25.

2- فتح القدير، الشوكاني، 185/4.

3- الروم (23).

4- غافر (61).